الفصل الثالث

الـمـواطـنـة

(١)

المواطنة

المواطنة إحدى الكلمات المهمة في التاريخ الحديث، وتكاد تكون أحد أهم مكونات السلام الاجتماعي، والمواطنة الكاملة تكاد تكون نادرة الحدوث في أغلب دول العالم إلَّا فيما ندر.

توجد مشاكل للأكراد في تركيا حتى الآن، وفي حين يدعي أردوغان حرصه على الشعب السوري، تجد كثير من الأكراد يعانون معاناة جمة، ومن الصعب بما كان أنْ تتحدث في مثل هذا الموضوع، ويبدو من المحرمات، ولا تعترف الحكومة التركية بالأكراد كأقلية عِرقية، فاللُّغة الكردية غير معترف بها في تركيا، ويحرُّم على الأكراد ارتداء ملابسهم التقليدية في المدن، ويحدث مثل ذلك مع كثير من الأقليات على مستوى العالم، وحين لا تستطيع أيَّة أقلية الاندماج داخل المجتمع، تتفجر كثير من المشكلات، ومن أحد عوامل نجاح المجتمع الأمريكي الحالي هي فكرة بوتقة الانصهار "melting pot" وهي فكرة انصهار كل العِرقيات والأديان في منظومة قوية قادرة على اجتذاب المواهب من كافة أنحاء العالم، وتكون الأولية للاجتهاد والعمل، وليس للعِرق أو الدين، وقد توجد حالات سلبية يمكن فيها تحطيم فكرة بوتقة الانصهار، لكنْ في نفس الوقت توجد أمثلة بارزة لكثيرٍ من

المبدعين في كافة المجالات، احتضنتهم تلك البوتقة وانصهروا داخلها، وأصبحوا جزءًا منها، وأنتجوا وأبدعوا، وأضافوا الكثير للمجتمع الأمريكي، ويستطيع القيام بمثل ذلك المجتمعات القوية.

فكرة الجميع في بوتقة المواطنة، فكرة بناءة تجمع كل روافد المجتمع الواحد لبناء دولة قوية، يوجد في الولايات المتحدة مسيحيون بروتستانت، كاثوليك، وأرثوذوكس، يهود، هندوسيين، مسلمين شيعة وسُنة، بوذيين وملحدين، ولم نسمع عن مشاكل دينية، فحرية العبادة مكفولة للجميع، وهي لا تعد مشكلة إلّا في المجتمعات البعيدة عن الفكر الحضاري، لن تتقدم امة إلّا إذا شَعُرَ جميع المواطنين بالحُرِّية التامة، عدد المسيحيين في الولايات المتحدة حوالي ٧٩%، وتمارس جميع الطوائف الأخرى العبادة بحرية تامة.

الانتماء للوطن ليس فعل أوتوماتيكي، بل هو حركة متبادلة بين جميع الأطراف المكوِّنة للمجتمع، فالمواطن التركي ذو الأصول الكردية، ليس لدية نفس المشاعر الإيجابية تجاه الوطن، وينسحب الأمر على مواطني الجنوب السوداني قبل الانفصال في ظل التطبيق القسري للشريعة الإسلامية، والتي جعلتْ معظم مواطني الجنوب، والكثير من مواطني الشمال يشعرون بظلمٍ شديد، فالنظام السوداني لم يقدِّم جديدًا سواء طبَّق الشريعة أم لم يطبقها، فالتنمية كانت أبعد ما يكون عن الفكر العام للحكومة السودانية، وهذا ما آلتْ إليه السودان: دولة مقسمة تعاني من نظام تعليمي متخلّف، بعيدة

عن المجتمع الدولي، لا تنتج، أو تبدع، أو تقدِّم إسهامًا عالميًا يُشعر المواطن بالفخر.

ولو نظرنا عبر التاريخ الحديث، لوجدنا أمثلة عديدة تمَّ احتضانها في داخل المجتمع الأمريكي، العالم الدكتور فاروق الباز، دكتور أحمد زويل، دكتور عصام حجي وغيرهم، ونظرة بسيطة على فريق السلة الأمريكي الذي يكون معظمه من أمريكيين من أصل أفريقي، وتستنتج ببساطة من ذلك أنَّ المجتمع الأمريكي مجتمع سريع الحركة، وفكرة الكفاءة تسيطر على معظم أطيافه، فعدد الأمريكيين ذو الأصل الأفريقي حوالي ١٣,٦% وهذا لم يمنع المدرب الأمريكي لكرة السلة أنْ يكون الفريق مكوَّن معظمه من أمريكيين من أصل أفريقي، فالمحك دائمًا وأبدًا هو مدى الجهد المبذول، وليس الأصل أو العِرق أو الدين، قد تظهر من آنٍ لآخر بعض المشاحنات على أساسٍ طائفي أو عنصري، لكنَّ الأساس في بناء المجتمع هو معيار الكفاءة، وتلك هي المعضلة في المجتمعات القبلية المتخلّفة، فالفرد في المجتمع الأمريكي تتغير أوضاعه الاجتماعية والمالية، ويصعد السلّم الاجتماعي إلى أي مدى طالما بذل الجهد المطلوب.

- **روزة باركس Rosa Parks:**

فقط في عام ١٩٥٥م حينما رفضتْ السيدة "روزة باركس" أمريكية من أصل أفريقي أنْ تتخلى عن مقعدها، وتجلس في المقاعد الخلفية للأوتوبيس حتى يجلس عليه رجل أبيض، وكانت

تلك هي القاعدة في تلك الأيام حيث يتم حجز المقاعد الأمامية للبيض، ويجلس السُّود في الخلف، إذا صعد إلى الأوتوبيس رجل أبيض ولم يجد مكانًا، فمن حقه أنْ يجلس مكان أي رجلٍ أسود على أنْ يجد الأسود مكانًا آخر له، ومَنْ يخالف ذلك كانت الشرطة تقبض عليه، ومن ثمَّ كانت السيدة "روزة باركس Rosa Parks" هي ثاني مَنْ قام بذلك حيث سبقها في ذلك شابة تبلغ من العمر ١٥عامًا "كلوديت كولفين Claudette Colvi" رفضتْ التخلّي عن مقعدها لرجلٍ أبيض، ومن ثمَّ قامتْ حركة مقاطعة وسائل النقل العامة من جانب السُّود، وساعدهم في ذلك بعض البيض مع وجود مضايقات كثيرة من الحكومة، واستمرتْ حركة المقاطعة لمدة ٣٨١ يوم، حتى أصبح من حق السُّود الجلوس في الأوتوبيس على قدم المساواة مع البيض.

المثير في القصة وغيرها من قصص الكفاح ضد العنصرية، هو حركة التغيير السريعة في المجتمع الأمريكي، حيث إنَّ رئيس الولايات المتحدة في ٢٠٠٨م هو بارك أوباما، أمريكي ذو أصولٍ أفريقية، ومن ثمَّ نجد أنَّ الوضع في البلاد القبلية في غاية التعقيد، إذ يتحكم الدين أو الجنس أو العِرق في مصير الفرد مدى الحياة، فهل يستطيع كردي أنْ يصبح رئيسًا لدولة تركيا مثلًا؟ وهذا يحد الفرد في إطار جنسه أو دينه أو عِرقه، وليس الجهد والكفاءة.

حين تصبح الكفاءة هي المحك والأساس، ويصبح كل المواطنين سواء، سوف يصبح المجتمع أكثر نضجًا، وأكثر قدرة على استيعاب كافة الأطياف، وسوف تزيد روح الانتماء.

- **الحقوق والانتماء: "مارتن لوثر كينج" و "غاندي" :**

الانتماء للوطن ليس أمرًا مسلَّمًا به، فهو ليس بالأمر الرومانسي المثالي، حين تضطهد أقلية إما بسبب الدين، العِرق، أو الانتماء السياسي، فحتمًا ستغيب فكرة الانتماء عن المشهد، وسيصبح الأكثر وضوحًا التفكير في الهجرة، أو كراهية الحياة، أو المقاومة الإيجابية.

مارتن لوثر كينج Martin Luther King (١٩٢٩م - ١٩٦٨م) أحد أهم رموز المقاومة في المقاومة الإيجابية متبعًا نهج مثله الأعلى غاندي، فهو مهندس فكرة المقاومة باستخدام (اللاعنف) وهي من أعظم الفلسفات في العصر الحديث، إذ تركّز على حق الإنسان في المقاومة دونما أنْ يفقد إنسانيته، فأنتَ تطالب بحقكَ في الحياة، ففكرة العنف والقتل لا يجب أنْ تكون جزءًا من الآليات المستخدمة.

أنتَ تطالب بالحُرِّية لكي تعيش، وقد نادى مارتن لوثر بمحبة إخوته في الوطن بغض النظر عن اللون والدين والعِرق، وبهذا لاقتْ دعوته قبولًا من كثيرٍ من البيض، وهذا يكرِّس فكرة قبول الآخر، فقد دعى مارتن لوثر لقبول الآخرين رغم الظلم البيِّن للسُّود في هذا الوقت، وبهذا تمَّ إنجاز تاريخي لم يتصوره عقل.

فكلما تساوى الجميع في الحقوق، وأصبح العدل أمرًا نافذًا واضحًا لا تخطئه عين، ومن ثمَّ تصبح فكرة المواطنة قابلة للتحقيق، لن تتحقق فكرة المواطنة بمعزلٍ عن فكرة العدالة، ففكرة انفصال

الأقليات هي بالأساس خطأ الأغلبية، حين تشعر الأقلية بالظلم في الوظائف والامتيازات مهما كانت، يستحيل مع هذا الوضع تطبيق المواطنة كمبدأ حياتي مجتمعي.

الأمثلة كثيرة عبر التاريخ وممتدة، جنوب السودان ودارفور، الأكراد بسوريا والعراق وتركيا، أهالي سيناء، النوبيين، الشيعة في أفغانستان، الشيعة في السعودية، البهائيين في مصر، وكثير من الأمثلة في كافة أنحاء العالم.

فقط حين يشعر المواطن بأنه مثله مثل أي مواطنٍ آخر مهما اختلفتْ الأعراق، الأديان أو اللغات.

يتحدث السويسريون الفرنسية والألمانية والإيطالية، وجميع المواطنين السويسريين يطبق عليهم نفس القانون، ويشعر كل مواطن أنَّ لديه نفس الحقوق، وهنا تتبلور فكرة الانتماء الحقيقي.

نستطيع بناء دولة فقط، حين يتساوى الجميع في الحقوق والواجبات، ويسود القانون.

- **الانتماء العاطفي:**

المصريون يمتازون بالعاطفة القوية، ومعظمهم يحبون مصر بشدة، وهو انتماء عاطفي بالدرجة الأولى، فالجميع في هذا الإطار ينتمي إلى الأهل والأحباب أكثر ما ينتمي إلى قيم مواطنة حقيقية، ففكرة الحُرِّية التي لم وربما لن تتحقق في المجتمع المصري في القريب العاجل، ومبادئ العدالة والمساواة ربما لم يشعر بهما المواطن العادي، وذلك لتغلل فكر الوساطة والشللية وأحيانًا الطائفية.

في حوارٍ لي مع صديقٍ صيدلي مهاجرًا إلى كندا، وكانت أحواله المالية جيدة، وكان السؤال التقليدي:

ـ لماذا تهاجر؟

وكانت الإجابة غير تقليدية:

ـ أريد أنْ أعيش متساويًا مع الآخرين مهما اختلف المستوى الاجتماعي أو المالي.

ففكرة المساواة فكرة شديدة الجدية، يسعى نحوها الجادون سعيًا حثيثًا، فهي تخلق مجتمعًا صحيًا.

كيف يشعر البهائي المصري حين يجد بطاقته الشخصية مختلفة عن شركاء الوطن الواحد بسبب عقيدته التي لا تعترف بها الدولة، فيكتب بجانب بند الديانة شرطة (ـ) فهل هذه هي البهائية بناءً على تعليمات الحكومة المصرية إبان عصر مبارك، وماذا سوف يضير الدولة حين يكتب بجانب الديانة للشخص البهائي (بهائي) ليس من حقِّ الدولة مهما كانت الأغلبية السياسية الحاكمة أنْ تبدي رأيها فيما يخص عقيدة المواطن، فهذا أمر يخصه وحده، وينطبق نفس الحال على الشيعة المصريين والملحدين أيضًا، وعددهم بالطبع مجهول.

مسئولية الدولة أنْ تقف على مسافة واحدة من جميع المواطنين، الدولة كيان اعتباري، وليستْ مشخصنة، وكلما ازداد حياد الدولة، كلما ازداد الانتماء، كلما شَعُرَ المواطن بالعدالة، كلما عَشِقَ المكان المنتمي إليه، واقترب الانتماء العاطفي من الانتماء العقلي المنطقي المسبَّب، فنحن ننتمي بالأكثر للأفكار العليا وليس للأشخاص.

تهميش النوبيين والسيناويين في مصر هو أمر شديد الوضوح، قسر المناصب القيادية الحساسة على المسلمين، وإعطاء الأقلية المسيحية بعض المناصب كنوعٍ من الترضية أيضًا أمر شديد الوضوح، فلابد أنْ نعمل على خلق ثقافة جديدة في المجتمع المصري، ثقافة تعلي من شأن المواطنة والمهنية، فالوظيفة مهما كانت هامة وحساسة فلابد أنْ يشغلها الشخص الأكثر كفاءة، ولكنَّ لعبة التوازنات لا تخلق مجتمعًا صحيحًا أو صحيًا.

ولن تشعر أيَّة أقلية في جميع أنحاء العالم بالانتماء إلَّا إذا أصبحوا جزءًا من مجتمعهم، والانتماء ليس حالة عاطفية بحتة، العاطفة مكون أساسي للانتماء، ولكنْ لابد من وجود روابط قيمية مهما اختلفتْ المذاهب والعقائد والأصول، يظل المجتمع متفقًا على قيم أساسية لا يختلف عليها، وهي قيم المواطنة، العدالة، المساواة والحُرِّية، والفرص المتساوية.

- **كارل براشير Carl Brashear 1931- 2006:**

التحق كارل بالبحرية الأمريكية عام ١٩٤٨م وتخرج كأول غطاس إفريقي أمريكي ١٩٥٤م، وقد تمَّ تهديده كثيرًا من زملائه البيض، ووصلتْ حتى تهديدات بالقتل، لكنَّ ذلك لم يثنيه عن عزمه، فقد أصدرتْ الحكومة الأمريكية قرارًا بإلغاء الفصل بين الأجناس، لكنَّ البيض لم يستوعبوا الرسالة، وهذا ما دفعهم إلى معاملته معاملة سيئة للغاية، لكنه أكمل المشوار حيث الهدف واضح نُصب عينيه، وقد فقد ساقه عام ١٩٦٦م في حادثة بالومارس Palomares

incidient، ومن ثمَّ فقد استخدم ساق صناعي، وقام بالتدريب وإعادة التأهيل حتى عام ١٩٦٧م، ثم عَمِلَ في مدرسة البحرية حتى عام ١٩٦٨م، ثم أصبح أول غطاس أمريكي ذي رجل صناعية، وفي عام ١٩٧٠م أصبح أول إفريقي أمريكي يصبح رئيسًا للغطاسين Master diver.

وقصة كارل براشير ما هي سوى درس قاسي لكل الكسالى المتحججين بكافة الحجج.

التمييز ضد الأقليات آفة الكثير من الحضارات والشعوب، وهي تكرس لوضع غير طبيعي أو منطقي، لكنْ في نفس ذات الوقت لا يوجد ذريعة منطقية للتكاسل، فالعوائق كثيرة ومتنوعة، لكنَّ الحياة قصيرة وممتعة، والمتعة الكبرى هي كسر القيود مثل كارل وغيره الكثير.

يقول كارل: " ليستْ الخطيئة أنْ تسقط بل أنْ تظل قابعًا".

والمجتمعات التي تتسم بتمييز فئة عن أخرى، هي تجابه مشكلات دائمة سواء على المدى القريب أو البعيد، فبناء مجتمع قوي ليس بالأمر الهين أو البسيط، وتتسم الثقافة المهيمنة، وهي غالبًا للأكثر عددًا مع وضع الاستثناءات في الاعتبار.

الغالبية في البحرين من الشيعة أما الحكم سني، وفي سوريا الحكم علوي والأكثرية سنية.

والأمثلة كثيرة ومتنوعة في كافة الاتجاهات.

▪ خصائص فكر المواطنة

جميع المواطنين أمام القانون سواء، فكرة شبكة العلاقات تتمحي مع سيادة القانون، القانون يطبق على الجميع، لا يوضع في الاعتبار اللون أو الدين أو الانتماء لجماعة بعينها، ومن ثمَّ يشعر المواطن بالانتماء، وتكاد تختفي فكرة الهجرة، فكرة العدالة تربط الناس بالأرض أكثر من أيَّة فكرة أخرى.

التمييز على أساس الدين، أو العِرق، أو اللون، أو اللُّغة يعيق فكرة المواطنة، لذا فجميع الدول التي تتبنى فكر المواطنة كأساس لبناء الدولة وتكوينها، نجد إجراءاتٍ صارمة ضد أي شكلٍ من أشكال التمييز، ولن تجد في هذه الدول خانة للديانة.

فكر المواطنة فكر غير تمييزي، يخلق مواطن ينتمي للدولة، وليس لجماعة بعينها داخل الدولة سواء كانت تلك الجماعة سياسية أو عِرقية أو دينية، ومن الكوارث الكبرى أنْ يشعر النوبي أنه ليس مرحبًا به في وطنه مثل الآخرين، أو الشيعي، أو المسيحي، أو غير ديني.

في فكر المواطنة المناصب العليا ليستْ حكرًا على فئة بعينها، ومن الممكن للمواطن المجتهد أنْ يقوم بما يصبو إليه في جميع الأحوال، في تلك المجتمعات يصبح الجهد هو العامل الرئيسي في التقدُّم للمرتبات الأعلى.

▪ المعايير المكوِّنة لفكر المواطنة

١ ـ مكان الميلاد معيار اكتساب المواطنة:

ويعني ذلك أنَّ الإنسان بغض النظر عن أيَّة اعتبارات أخرى، فقط لأنكَ ولدتَ في هذا الوطن، فأنتَ مواطن درجة أولى.

٢ ـ جميع المواطنين متساوون أمام القانون:

القانون يطبق على الجميع بنفس الكيفية، ولا توجد مراكز قوة ولا امتيازات لفئة عن أخرى.

في حوارٍ لي مع صديقٍ صيدلي قرر الهجرة إلى كندا، إنَّ أسباب الهجرة لديه ليس لها علاقة بالظروف المادية، ولكنه شَعُرَ في كندا حين زارها أنَّ الجميع أمام القانون سواء، ومع صديقة فلسطينية كانت قد زارتْ كندا حين كنا زملاء بالجامعة، وقالتْ لي إنَّ ما أثَّر فيها حقًا هو طريقة التعامل، وقالت: شعرتُ بأنني إنسانة أكثر.

وهذا يفسِّر مدى قدرة الكثيرين على التعايش في مجتمعاتٍ جديدة، وترك المجتمع الذي قضوا به فترة طويلة من عمرهم.

٣ـ إنمائي:

فكر المواطنة فكر إنمائي في الأساس، يتجه صوب التنمية من كل اتجاه، لا يعنى بشيءٍ سوى الجهد المبذول من أجل الوصول للقمة.

ترحب كندا واستراليا بكثيرٍ من المهاجرين من مختلف الجنسيات شريطة أنْ يكونوا إضافة تنموية عاملة لتلك البلاد، وجذبتْ الولايات المتحدة الأمريكية كثيرًا من العباقرة، وأصبحوا مساهمون بشكلٍ فعال في بناء الحضارة الأمريكية، وذلك عكس مصر تمامًا التي يصعب على كثيرٍ من العلماء البقاء فيها، وذلك لكثيرٍ من الأسباب، من أبرزها: ضعف المقابل المادي، وضعف الإمكانات المادية التي تساعد في البحث العلمي، فبينما يكثف ويركّز العلماء في الغرب الوقت والجهد في البحث العلمي، يظل العالم المصري في حالة بحث دائم عن لقمة العيش، والباحثون عن الحقيقة والراغبون في التنمية المستدامة غالبًا ما لا يتمكنون من العيش في العالم الثالث، حيث يصبح العلم هو شغلهم الشاغل، وبالتالي يصبح وطنهم عبئًا حين ينبغي أنْ يكون أحد العوامل المساعدة.

٤ـ الوطن هو القيمة العليا:

يصبح الوطن قادرًا أنْ يجعلكَ مدفوعًا إلى محبته منذ نعومة الأظافر، فكل ما في الوطن لا يجعلكَ تشعر بالغربة، يصبح الوطن هو الطاقة الجامعة، قد يختلف المواطنون في الخلفيات الثقافية، العِرقية والدينية، لكنْ يظل الجميع منتميًا للوطن الواحد.

في مصر يوجد مسلمون سُنة، مسيحيون أرثوذوكس، بروتستانت، وكاثوليك، بهائيون، وقليل من الشيعة، ويوجد أيضًا بعض غير دينيين، ولابد أنْ لا يؤثر ذلك بأي حالٍ من الأحوال على الانتماء لمصر، فالجميع مصري الانتماء، ويدين بما يحلو له بعد ذلك، حين

تتدخل الهوية الوطنية مع الهوية الدينية، يصبح الأقليات عرضة للمعاملة كمواطنين أقل أهمية، إنْ لم يكن من الدرجة الثانية، ويتطلب ذلك كثير من الوعي والتغيير.

أول رئيس غير بروتستانتي للولايات المتحدة الأمريكية، هو جون ف كينيدي (John F Kennedy) (٢٠يناير١٩٦١م حتى اغتياله في ٢٢نوفمبر١٩٦٣م) وهو أول رئيس كاثوليكي، ثم جاء أوباما عام ٢٠٠٨م كأول رئيس أمريكي من أصل إفريقي للولايات المتحدة، وهذا يفسر عملية التغيير على المستوى الشعبي والثقافي.

نوبار باشا (١٨٢٥م - ١٨٩٩م) هو أول رئيس وزراء أرمني مسيحي في مصر في عهد محمد علي باشا، ولم يكن هذا بسبب التسامح الديني أو قبول الآخر إبان تلك الأيام، وإنما لوجود حاكم قوي صارم مثل محمد علي، كان يضع النجاح قبل أي شيءٍ آخر نُصب عينيه.

٥- غير إقصائي:

المجتمع المبني على قيم المواطنة لا يقصي مواطنيه، فهو يزيد من الاندماج بين مواطنيه، ولا ينمو داخله مجتمعات منعزلة، فلا يوجد داخله "Ghettos" الجيتو هو تجمع لمجموعة من المواطنين لهم نفس العقيدة والعِرق، ويكونوا بمعزلٍ عن بقية المجتمع، وهنا توجد مشكلة ثلاثية العوامل.

- العامل الأول: الجهات التنفيذية والتشريعية

في نظري هذا هو العامل الأكثر أهمية، وينطوي تحت العامل الأول السلطة التنفيذية والتشريعية، ولابد من أنْ يساعدا في اندماج كافة عناصر المجتمع، ولا يسمحون بخلق أيَّة أنواع من الجيتو، فقد تظهر مناطق الجيتو، حين لا تستطيع الدولة القيام بواجباتها على نحوٍ، يُشعر كافة المواطنين بأنهم أمام القانون سواء، لابد من وجود تشريع ومشرعين يعلُون من قيم المواطنة.

وبمصر كثير من التكوينات الجيتية، فالمجتمع المسيحي مازال غير مندمجٍ بالقدر الكافي، وإذا نظرنا للشيعة في مصر والبهائيين سوف نجد أنهم أسوأ حالًا من بقية الأقليات.

ـ العامل الثاني: الأغلبية

لا بد وأنْ تعلم الأغلبية أنها أحد أهم مصادر الاندماج، ولا بد أنْ يعملوا جاهدين حتى يساعدوا الأقليات أنْ تصبح جزءًا من المنظومة المتكاملة للمجتمع.

ـ العامل الثالث: الأقليات

لا بد أنْ تعمل الأقليات على الاندماج بشتى الطرق، عليهم الإسهام في كافة مناحي الحياة، والمطالبة بالاندماج عملًا وجهدًا، وليس نحيبًا وعويلًا، سكن المسيحيون في الكنائس كثيرًا، طالبوا بحقوقهم في الجلسات الخاصة ومع أصدقائهم المسلمين في المقاهي، وقد بدءوا العمل الجاد بعد أحداث كنيسة القديسين، وخرجتْ الأصوات للشارع، وارتفع الصوت الهادئ، وهي خطوة لابد من تطويرها،

وضم كل أطياف المجتمع لها؛ لأنها بالأساس قضية وطنية، وليستْ فقط مشكلة مسيحية.

حين يصل المجتمع المصري لمرحلة أنْ يدافع المواطنون عن حقوق بعضهم البعض بصرف النظر عن اختلاف العقيدة أو العِرق أو المذهب، فهذا يخلق ترابطًا وتماسكًا اجتماعيًا شديد الأهمية، وتصبح بذلك قضية أيَّة أقلية هي بالأساس قضية وطنية.

٦ـ للفرد قيمة عليا في مجتمع المواطنة:

في المجتمعات القبلية للجماعة التي ينتمي إليها الفرد قيمة أكبر من الفرد، وتتحدد قيمة الفرد بناءً على القيمة الفعلية للجماعة التي ينتمي إليها، أما في المجتمعات التي تعلّي قيمة المواطنة، فالفرد في حد ذاته هو القيمة الأساسية، وتزداد أهمية الفرد كلما أنجز، والسلَّم الاجتماعي قائم يعطيكَ فرصة الصعود، وكلما اجتهد الفرد كلما ارتقى أعلى الوظائف وأهمها، أما في المجتمع القبلي فالجماعة تحدد قيمة الفرد.

٧ـ الحُرِّية حجر أساس المواطنة:

لا تنمو حضارة في غياب الحُرِّية، كلما زادتْ الحُرِّية الفردية، كلما استطاع الفرد أنْ يسعد بحياته بالطريقة التي باتتْ تروق له مهما اختلفتْ عن السائد، فما يحدد نهوض أيَّة امة هو مدى الحُرِّية المتاحة في المجتمع، وكلما تساوى جميع الأفراد، واستمتعوا بنفس

الحريات على أساس المواطنة، كلما شق التقدُّم الطريق في كل مكان.

دائمًا أبدًا يعاني المسيحيون عند بناء دور العبادة، وهذا أمر عجيب، ويقلّل من فكرة المواطن غير القادر على بناء دار عبادة بحرية مثله مثل المواطن المسلّم، وبالتالي سوف يشعر بغياب جزئي للحرية، وسوف تقل إنْ آجلًا أم عاجلًا درجة الانتماء، وسوف ينسحب نفس الشيء على المواطن المسلّم غير القادر على نشر مقالًا له في جريدة ما، ويتم رفض المقال بتعليمات أمنية، وهنا ورغم أنَّ هذا المواطن ينتمي للأغلبية العددية إلا أنه لا يشعر بأنه مواطن ذو أهلية وكامل الحقوق، أو لنقلْ مواطن مصري لم يتم تعيينه في الجامعة بدرجة معيد، وذلك بسبب الدين، أو الطبقة الاجتماعية، أو حتى اللون، فيشعر المسيحي بغياب المواطنة، ويشعر المسلّم أحيانًا بغياب المواطنة، ويصبح في هذه الحالة غياب متعدد المستويات لفكرة المواطنة، وينسحب هذا الكلام على البهائيين والشيعة واللا دينيين.

٨ـ مسافة واحدة:

في الدول التي تدعم فكرة المواطنة، تقف الدولة على مسافة واحدة من كافة العِرقيات والمعتقدات، ليس للدولة عقيدة، الدولة كيان اعتباري، الأفراد لديهم عقيدة وعلى الدولة أنْ تتيح لهم الحُرِّية في إقامة دور العبادة، وممارسة شعائرهم في إطار قانون منظّم لبناء

دور العبادة، وهنا لا ينبغي على الدولة أنْ تتحيز لفصيلٍ على آخر، فذلك يزيد الاحتقان والفجوة بين فصائل المجتمع المختلفة.

٩- منفتح على العالم:

فكر المواطنة لا يغذي فكرة الانغلاق على الأهل والقبيلة والعشيرة، والفرد في مجتمع مبني على المواطنة منفتح على الثقافات الأخرى، ويتعامل مع الآخر ليس بحسب انتمائه لِعِرقٍ أو دينٍ ما، إنما يتعامل مع الفرد فقط كفرد، وهنا تزيد مساحات التعرُّف على الآخر في إطار من فرديته، وليس في إطار جماعته، الذي يعيش في ثقافة المواطنة لن يعتبر كل المسلمين اسامة بن لادن، ولن يتعامل مع الغربيين على أساس أنهم استعماريون، سوف يفرق بين الفرد وما هو شائع عن تلك الثقافة.

١٠- كل المناصب متاحة:

في مجتمع يغذي فكر المواطنة، تغيب التربيطات والشللية وشبكات المصالح إلى حدٍ كبير؛ ليحل محلها الإتقان والموهبة.

مهندس هاني عازر مصمم محطة قطارات برلين، لم يقم بحسب أصله المصري بل بحسب مقدرته على القيام بمهامه، والكلام ينسحب على د/ زويل، ود/ فاروق الباز، ود/ عصام حجي، ود/ مجدي يعقوب.

في مجتمع المواطنة الكل مدعوٍ أنْ يعمل ويطمح، ولا توجد حدود لطموحكَ، أنتَ مواطن؛ لأنكَ ولدتَ في هذا البلد، ليس بالضرورة أنْ تنتمي لعائلةٍ ما، أو لقبيلةٍ ما، أو لمجتمعٍ ما حتى تأخذ فرصتكَ.

المرشح الرئاسي في انتخابات الولايات المتحدة الأمريكية "ميت رومنيMitt Romney" ينتمي إلى المورمين، وهم لا يمثّلون أكثر من ٢% من عدد السكان في أمريكا، ومن قبله باراك أوباما المنتمي للأمريكيين من أصل إفريقي، وهم لا يمثّلون أكثر من ١٣% من عدد السكان، ولكنَّ قصة المواطنة أصبحتْ لا تتحدث سوى عن الإنجاز، ما تستطيع القيام به، ويعمُّ بالفائدة على المجتمع الذي تحيا فيه.

في مصر توجد توازنات لها علاقة بالأغلبية والأقلية، الغني والفقير، والأكفاء غالبًا ما يجدون مشقة شديدة في الحصول على فرصة تتيح لهم التقدُّم نحو ما يصبون إليه، ويحاول الآخرون دائمًا تحجيم دور الشخص، وتصعد في إطار محدد لكَ سلفًا، وبالطبع توجد استثناءات، لكنَّ القاعدة دائمًا وأبدًا أنكَ توضع في إطار جماعتكَ، لا يمكن بأي حالٍ من الأحوال على المستوى الفردي أنْ يفوز الرئيس المعزول محمد مرسي بانتخابات الرئاسة في مصر إلَّا إذا كان ينتمي لجماعة الإخوان المسلمين، فمقارنة بين تاريخه السياسي والمهني مع د/ محمد البرادعي، أو السيد عمرو موسى، أو السيد حمدين صباحي، أو السيد منصور حسن، أو الفريق شفيق لم تكن أبدًا في صالحه، وقد أصبح مرسي رئيسًا على أسسٍ غير

مهنية، لا ترتبط بمدى الكفاءة عنده، وأدى ذلك إلى نتائج باهظة التكاليف.

فقط انتماؤه لتلك الجماعة غير الديمقراطية من حيث التكوين، أتاح له فرصة حكم مصر لمدة عامٍ كامل، وقد قامتْ جماعته بتبرير كل أفعاله، وتلك هي آفة التفكير القبلي الحزبي، المبني على تدعيم فريقكَ أو حزبكَ أو عشيرتكَ سواء كان هذا التدعيم عن صوابٍ أم عن خطإٍ، ويقوم بالتبرير في كل الأحوال، ويأخذ دور المدافع المستميت، وينسى فكرة التحليل الموضوعي.

حين يتخلى الفرد عن القبلية والحزبية، ويرى الصورة بوضوح، فيقترب أكثر من فكرة العدل التي قد تقوده إلى الحقيقة.

▪ مخاطر غياب فكر المواطنة

إنَّ غياب المواطنة كقيمة مجتمعية أساسية، وحجر زاوية لبناء مجتمع صحي، هو أمر كارثي في حد ذاته، وغياب المواطنة يساعد على إنشاء مجتمع مبني على الطائفية أو العِرقية، وهذا مجتمع هش قابل للكسر، وقنبلة موقوتة قد تندلع مع وجود أي تهديدٍ خارجي، وتتفاقم المشاكل العِرقية والدينية فقط حين تشعر أيَّة أقلية بأنَّ دورهم بلا أهمية، وحقوقهم مهدرة، لن تكسب الدولة ولاء مواطن إذا كان مهدر الحقوق، المشاكل واضحة وغائبة، معلنة ومستترة، المشاكل قد تتفاقم بأيَّة لحظة في لبنان، تركيا، البحرين،

الكويت ومصر، ودول أخرى كثيرة، وكلٌّ ذي مشاكل متنوعة ومختلفة، ولن تتعجب حين تجد أنَّ كثيرًا من الجنسيات المختلفة تعايشتْ، واندمجتْ في استراليا وكندا والولايات المتحدة الأمريكية بل ويشعرون بالفخر كونهم ينتمون لتلك الأوطان الجديدة، فحكومات تلك الدول تسعى سعيًا حثيثًا نحو النجاح والنهضة، ولن تتحقق نهضة سوى بتضافر الجهود من كافة الأطياف المكوِّنة لمجتمعٍ ما في مكانٍ ما، وسوف نجد تلك المجتمعات التي تعلّي قيمة المواطنة تركّز على المواهب والجهد البشري، وكلما زاد ذلك كلما نهضتْ الدول، أما التحزُّب فلن يخلق أبدًا دولة كبرى.

فقط علينا، ونحن نفكّر في مدى خطورة غياب فكرة المواطنة أنْ نعرف عدد العلماء العرب في أوروبا وأمريكا وكندا، ونتصور للحظات لو استخدمتْ تلك الطاقات العظيمة في العالم العربي، قد كنا نعيش الآن في عالمٍ مختلف.

يتحمل معظم الحكام العرب حتى هذه اللحظة غياب التطور الاجتماعي، وتغلغل الفكر الطائفي التمييزي .

▪ كيفية التحول لفكر المواطنة

لن يتحول مجتمع إلى فكر المواطنة، وإنهاء حالات التحزُّب والقبلية بين ليلةٍ وضحاها، فتلك عملية طويلة ومعقدة، وقد استغرقتْ الكثير في معظم الثقافات.

- **أهم العوامل المساعدة في التغيير:**

١ـ المهنية:

الشخص المهني دائمًا ما يركز على روعة الأداء والحرفية، ويمتدحهما، وفي الغالب الأعم لا يركز كثيرًا على التفاصيل القبلية والعِرقية، وكثير من لاعبي الكرة في العالم مثلهم الأعلى هو "ميسي" ويركزون فقط على تلك الموهبة غير العادية، ولا يلتفتوا كثيرًا للتفاصيل الثقافية المرتبطة بميسي، والكلام ينسحب على مواهب كثيرة بالنسبة للكثيرين على مستوى العالم، مثل: ماري كوري، بيل جيتس Bill Gates، ستيف جوSteve Jobs ، زهي حديد المعمارية العراقية الكندية، رمزي يسي عازف البيانو المصري العالمي، مهاتير محمد رائد نهضة ماليزيا، وغيرهم الكثير من كافة أنحاء العالم.

القضية هنا أنَّ الإنجاز عامل قوي في تغيير الواقع نحو الأفضل.

٢ـ العدالة:

كلما شَعُرَ الإنسان بالعدالة، كلما زاد انتمائه للمكان الذي يعيش فيه، يحتاج الفرد أنْ يشعر أنَّ القوانين تطبق على الجميع بنفس الكيفية بصرف النظر عن أيَّة عوامل أخرى.

٣ـ الرغبة الحقيقية في التغيير:

فقط غير القادرين والكسالى وأصحاب المصالح، هم المقاومون للتغيير، التغيير يحتاج أشخاصًا تحاول دائمًا تغيير الواقع نحو

الأفضل، الكسول لا يرغب في التغيير لأن ذلك سوف يتبعه مشقة وجهد وهو في حالة راحة وكسل واستفادة من الوضع الراهن، لن يهتم بالتغيير هؤلاء المستفيدون، فقط هم يحاولون تعطيل التغيير، الرغبة تأتي من فكرة عدم الرضا بالواقع كما هو، ولهذا يحاول البعض التغيير، ويحاول البعض الآخر إبقاء الوضع على ما هو عليه، يوجد صراع حقيقي دائم بين القوى المستفيدة والقوى الراغبة في التغيير.

▪ استخدام آليات التحول لفكر المواطنة

لا يحدث أي شيءٍ في تلك الحياة بين ليلةٍ وضحاها، أي نشاطٍ نقوم به يحتاج دائمًا لرأس مال، ثم كيفية إدارة رأس المال، ورأس المال لأي دولة هو الشعب، وكيفية إدارة رأس المال هي مسئولية الجهات التنفيذية بالأساس.

أ ـ التعليم:

أهم الآليات في بناء المواطن هي التعليم، لابد أنْ يساعد التعليم في التأكيد على أهمية كل فردٍ في المجتمع، ولابد من تقدير كل مَنْ ساهم في تاريخ الوطن وبناءه، ومن المثير للحزن والغضب في آنٍ واحد، هي المحاولات المستمرة لتهميش كثير من البارعين والعباقرة، بل والعمل أحيانًا على إبعادهم.

لا يجب تمييز أفراد عن أفراد، ودائمًا وأبدًا الوطن هو الجامع لكل القوى والقدرات، وحين تهيمن الأغلبية على كتابة التاريخ وفقًا لمصالحها وفقط، تُظهر الجانب المضيء في حضارتها، يحدث خللًا كبيرًا في بناء المواطن، وتشعر الأقليات بالتُّهميش، وقد يحدث نوعًا من الصدع في العلاقة.

إظهار احترام وتقدير لكافة الثقافات، وبناء تعليم يؤكد ويمارس التفكير النقدي، سوف يظل عاملًا هامًا في ظهور فكر المواطنة الذي يحترم، ويقدِّر كافة الأفراد بنفس القدر ونفس الكيفية.

- **التفكير النقدي:**

التفكير النقدي هو الأب الشرعي للإبداع، ويعتمد التفكير النقدي على الآتي: ملاحظة كل شيء، وعدم قبول المعلومات والأفكار كحقائق غير قابلة للنقاش.

استخدام التفكير النقدي يعني استخدام كل المعلومات المتاحة، وملاحظة كل الظواهر، والتعرُّض لظواهر أخرى حتى يتمكن الفرد من المقارنة، وهي جزء من عملية التفكير النقدي، ومن ثمَّ يستطيع الوصول لقرارٍ قريب من الصحة.

وفي جميع الأحوال يجب تجريب تلك الأفكار في البيئة المحيطة، ومعرفة مدى نفعها، ومن ثمَّ فِهم أحد خصائص التفكير النقدي، وهي المرونة في التعامل مع الواقع، وذلك من خلال عملية تغيير مستمرة مرتبطة بتغيير الواقع السريع من حولنا على كافة المستويات، وكافة الأصعدة.

مثلًا حين تقرِّر أنْ تصلح حال التعليم المصري، ومن المعروف أنَّ خريجي المدارس والجامعات المصرية، يبذلون جهودًا ضخمة وهائلة، ومع ذلك كثير من حديثي التخرج، يفتقدون كثيرًا من المهارات العملية التي تمكنهم من الحصول على وظيفة جيدة.
ومن ثمَّ يجب ملاحظة، وتفنيد كل عوامل التعليم، ومقارنة ما يحدث في المدارس المصرية مع دول متقدمة علميًا، مثل: اليابان، كوريا الجنوبية، كندا، ألمانيا والولايات المتحدة الأمريكية، ومن ثمَّ نقف على ما نحن فيه، ونبدأ في انتقاده ومعرفة كافة نواقصه، ومن ثمَّ نتعامل مع مشاكلنا الحالية في محاولة جادة للحاق بركب الحضارة، لن تستطيع إصلاح الحاضر إلَّا من خلال فِهم الواقع الحالي عن طريق مقارنة ما ينتجه مع ما ينتجه نظام تعليمي مثل النظام الياباني، ومن ثمَّ نعرف حجمنا الحقيقي، ونعمل جاهدين على تغييره نحو واقع أفضل من خلال استخدام الآليات المناسبة.

كثيرًا ما تحدث مشاكل بسبب بناء كنيسة، أو تحوُّل شخص إلى الإسلام أو المسيحية، ويجب استخدام التفكير النقدي هنا بنفس الآلية، تحليل كل العوامل التي تؤدي إلى تلك المشاكل، وهي متعددة، من ضمنها: حال التعليم المصري، عدم معرفة الكثير عن المسيحية، عدم وجود تقدير للفكر المسيحي، والحضارة المسيحية في الكتب الدراسية، والمشكلة الاقتصادية لها دور كبير في هذه المشاكل، إذ لم نسمع عن مشكلة بين مسيحيين ومسلمين في مناطق راقية، فمعظم المشاكل منذ أحداث الزاوية الحمرا وما قبلها، وقعتْ في أماكن تعاني من مشاكل اقتصادية شديدة.

بعض القنوات الدينية تثير كثير من القلاقل وتزيد الاحتقان، فلابد من التعامل مع كل العوامل التي تؤدي إلى حدوث الظاهرة.
وهنا أيضًا يجب مقارنة تلك المشكلة مع دول أخرى، كانت لديها نفس المشكلة واستطاعت حلها، ومحاولة فِهم الواقع الآخر بعمق وتحليل كل العوامل، ومن ثمَّ نستطيع أنْ نستخدم بعضًا من الآليات التي نجحتْ وتتناسب مع طبيعة الشعب المصري.

ب- ازدهار الفنون:

الفن هو روح الحياة، وحين تزدهر الفنون يصحب ذلك تأثيرًا عظيمًا على الشعوب، وقيمة الفن العليا أنه يخرج عن نطاق الواقع حين يحاكي الواقع ويجعله واقعًا مختلقًا، والفن يحفز التفكير والخيال، وبالتالي يزداد نشاط الجميع، والفنون هي إنتاج مجتمع يستمتع بالحُرِّية، والتعليم قادر على تحفيز الخيال، ولن نجد حلولًا لهذا الواقع الحالي إلَّا إذا تعمقنا بشدة في غير المألوف، والفن أحد أدوات تحريك العقل وتحليق الخيال.

الفن شديد العلاقة بفكرة المواطنة، على المستوى الواقعي أيضًا كثير من الفنانين يجمعوا الوجدان الشعبي أكثر من أكثر الخطب عنفوانًا، وعلينا فقط أنْ نتأمل تأثير فيروز، وام كلثوم، وعادل إمام، ويوسف شاهين، ومحمد منير، وصلاح أبو سيف، وآخرين كثر في كل ثقافة وكل مكان.

وكلما كانت الأفكار المطروحة في العمل الفني إنسانية، كلما أسهمتْ أكثر في ترسيخ فكرة المواطنة في وجدان الشعب.

- **النسبي والمطلق:**

أحد أعقد المشاكل الكونية وأكثرها إثارة للجدل، فيما يتعلق بما هو نسبي وما هو مطلق، وقد تحتد النقاشات، وقد تصل إلى حد التقاتل، والمطلق: هو فقط مطلق لشخصٍ ما أو مجموعةٍ ما في وقتٍ ما في مجتمعٍ ما، وسط ظرفٍ اجتماعي ما، وسط أحداثٍ تاريخية بعينها، وتغيُّر أحد الظروف يؤدي لتغيُّر ما هو مطلق.

ودراسة بسيطة لتاريخ العالم تجد أنَّ التغيير هو الحتمي، فالمطلق اليوم لدى فرد ما قد يصبح نسبيًا غدًا، وقد يظل كما هو، وقد يعدَّل أو يمحوه من تفكيره، وذلك لعدة اعتبارات، أهمها: التعرُّض لخبرات جديدة، والتفاعل مع الحياة بشكلٍ دائم ومستمر، لذا نجد أنَّ البعض يظل لا يناقش ما هو بالنسبة له أمر مسلَّم به، لا يعتريه تغيير ولا يأتيه بطلان، وذلك في حد ذاته يمثِّل إشكالية مع حركة الحياة التي تتسم بالتغيير الدائم والحركة.

وجود النسبية كحجر زاوية في بناء المجتمع، سوف يعزز قيمة المواطنة في المجتمعات التي تتعدد بها الثقافات والديانات، بحيث لا تصبح الثقافة المهيمنة هي المتحكمة في المعايير الثقافية لمجتمعٍ ما.

- **المـرأة:**

وضع المرأة في العالم تغير عبر التاريخ، ولكنه يظل أمرًا نسبيًا، والنسبية هنا تكمن في رؤية الفرد للواقع. فدور المرأة والمتوقع منها، يختلف حسب وجودها الجغرافي، وحتى رؤية المرأة لذاتها وحقوقها، تختلف من واقع مكاني لواقع مكاني آخر.

في حال الحوار مع امرأة من أفغانستان، أو كندا، أو كينيا، أو مصر، أو السويد، أو السودان، فسوف تجد إجابات متناقضة لكثير من الأسئلة، ولن تندهش حين يكون العدد أكبر من نفس الدولة، فسوف تجد تناقضات في نفس الدولة بحسب الخلفية الاقتصادية والاجتماعية والدينية، ففكرة النسبية متغلغلة حتى داخل المجتمع الواحد.

ولو نظرنا للطعام، فسوف نجد المسلمين واليهود، يحرِّمون أكل لحم الخنزير، ويأكله المسيحيون، ولا يفضِّل البوذيون أكل لحم الخنزير والبصل والثوم ولحم الخيل لكنْ لا يحرِّموها، والسؤال هنا ليس هو.. هل لحم الخنزير جيد أم لا؟ وما هي أسباب التحريم أو السماح به؟ لكنه في نهاية الأمر موضوع نسبي من حيث النظرة إليه، فليس الأمر حين نتحدث عن نسبية الكون له علاقة بالشيء أو المادة أو السلوك، وإنما كيف يتصرف الشخص في اتجاه ذلك السلوك، وعليكَ في نفس الإطار أنْ تتفحص بل وتمتحن كثير من الأنماط السلوكية حول العالم، ويمكن القياس والتدليل على فكرة النسبية من خلال الملابس، بعض المعتقدات لديها مفهوم عن الحشمة مختلف عن المعتقدات الأخرى، وما يعتقد البعض أنه فضيلة قد ينظر له الآخر على أنه لا يمثّل شيئًا له.

وفي كل الأحوال لابد من بذل جهدٍ ما حتى نتفهم الآخر، ونتعرف على ما هو نسبي وما هو مطلق لديه، وبالتالي يقل مستوى الصدام ويزداد معدل التعاون.

- **حجر الزاوية:**

ومن هنا يتبين أنَّ النسبية هي حجر الزاوية لقبول الآخر واحترامه، وبناء مجتمع متسربل بالتعايش الإيجابي، لذلك فاليقين البديهي أنَّ الاختلاف هو سنة الحياة، وما هو نسبي وما هو مختلف حوله هو كثير، وقد لا نستطيع حصره أوإحصاءه، ومن هنا تتبلور فكرة المواطنة، كلنا مواطنون نعمل لصالح تنمية وطنًا واحدًا، ويحكمنا قانون واحد يطبق على الجميع بحيادية ونزاهة.